

الفصل الثالث عشر

بطرس الأكبر

١٦٩٨ - ١٧٢٥

١ - الهمجى

أراد فولتير « أن يعرف ما الخطوات التى انتقل بها الناس من الهمجية الى المدنية (١) » فلا عجب اذن أن أثار بطرس اهتمامه ، لأنه كان يجسد على الأقل ذلك الجهد ، ان لم يكن تلك العملية ، فى بدنه وروحه وشعبه . أو استمع الى ملك « أكبر » آخر ، هو فردريك الثانى ملك بروسيا ، يكتب الى فولتير عن بطرس فى شيء من الخلط :

« لقد كان الملك الوحيد المتعلم حقا . ولم يكن مشرع وطنه فحسب ، بل كان يفهم جميع العلوم البحرية فهما تماما . وكان معماريا ، ومشرحا ، وجراحا . . . وجنديا خبيرا ، واقتصاديا بارعا . . . ولم يعوزه الا تعليم أقل همجية وضراوة (٢) ليكون المثل لجميع الملوك » .

ولقد لاحظنا ذلك التعليم الهمجى الضارى ، وما اكتنف طفولة بطرس من عنف وسفك للدماء ، مما هز جهازه العصبى وعوده الشراسة . وكان حتى فى شبابه يعانى من تقلص عصبى لا ارادى فى عضلاته ربما استفحل بعد ذلك بالأفراط فى الخمر وبالمرض السرى (٣) . كتب بيرنيت بعد أن زاره بانجلترا فى ١٦٩٨ (٤) يقول : « انه عرضة لتشنجات تصيب بدنه كله » . وقال روسي من أهل القرن الثامن عشر « من المشهور أن هذا الملك . . . كان عرضة لنوبات مخية قصيرة متكررة من نوع عنيف بعض الشيء . وكان ضرب من التشنج يعتريه ، يحدث به فى فترة قد تمتد ساعات حالة من الاكتئاب تجعله لا يطيق النظر الى انسان ولو كان أقرب أصحابه . وكان يسبق هذه النوبة دائما التسواء شديد فى العنق نحو الجانب الأيسر ، وتقلص عنيف فى عضلات

الوجه (٥) « . ومع ذلك كان متين البناء قوى البدن . وروى أنه حين التقى بأوغسطس الثانى تباريا فى ثنى الأطباق الفضية فى أيديهما . وقد صوره نيلر عام ١٦٩٨ شابا يتقلد السلاح وشعارات الملك ، غاية فى اللطف والبراءة ، بعد ذلك نجده مصورا تصويرا أكثر واقعية ، فهو عملاق محدودب ، طوله ستة أقدام وثمانى بوصات ونصف ، ذو وجه تام الاستدارة ، وعينين واسعتين وأنف كبير ، وشعر بنى يتساقط فى خصل لا تقص الا نادرا . ولا تكاد نظرتة الأمرة الناهية تنسجم وثوبه المهمل المهوش ، وجواربه الخشنة المرفوة ، وحذاءه المرقع ترقيعا بدائيا . ومع أنه نظم أمة بأسرها الا أنه كان يترك محيطه المباشر فى فوضى أينما ذهب . ذلك أن الجهود الكبيرة استغرقتة استغراقا ضن معه على التوافه بأى وقت .

وأما عاداته فكانت كلباسه لا تعمل فيها ولا تأنق حتى لتحسبه فلاحا لا ملكا - لولا أنه كان خلوا من صبر الفلاحين الروس المتبلد . بل لقد كانت عاداته أحيانا أسوأ من عادات الفلاحين لأنه لم يكبحه خوف من سيد أو خشية من قانون . مرة رأى تمثالا لآلة الذكر فى مجموعة عادات ببرلين ، فأمر زوجته أن تقبله ، فلما رفضت كاترين هدها بضرب عنقها ، ولكنها أصرت على الرفض ، ولم يهدىء من ثائرتة الا تقديم التحفة هدية له يزين بها حجرتة الخاصة (٦) . وكان فى أحاديثه ورسائله يبيح لنفسه استعمال أنكر الألفاظ وأفحشها . وكثيرا ما كان يعنف أخص أصدقائه بضربات من قبضته الهائلة ، ومرة ضرب منشيكوف على أنفه فأسال دمه ، ومرة ركل ليفور . وكان ولعه بـ « المقلب » يتخذ أحيانا مصورا قاسية ، من ذلك أنه ألزم أحد مساعديه بأن يأكل السلاحف ، وآخر بأن يشرب قارورة كاملة من الخل ، وفتيات صغيرات بأن يبتلعن حصة جندى من البراندى . وكان يجد لذة شاذة فى تطبيب الأسنان ، وكان على المقربين منه أن يحذروا من أن تبدر منهم أقل شكوى من ألم فى أسنانهم ، فكلابته دائما فى متناولهم . ولما شكا اليه تابعه من أن زوجته تحتج بألم مزعوم فى ضرسها لتحرمه من متع الزواج ، أرسل فى طلبها ، وخلع لها ضرسا سليما ، وقال لها أن تنتظر المزيد اذا ظلت عزباء (٧) .

ولقد جاوزت قسوته الفاجرة النقطة التى يمكن أن يعتذر عنها

بأنها طبيعية أو ضرورية في زمانه ومكانه . حقا لقد ألف الروس القسوة ، ولعلمهم كانوا أقل حساسية للألم من ذوى الأعصاب الأكثر رهافة ، وربما كانوا في حاجة الى تأديب صارم ، بيد أن قيام بطرس شخصيا . تقريبا بذبح حامية موسكو يوحى بلذة سادية بالقسوة ، وشبق للدماء ، وما كان هناك ضرورة من ضرورات الدولة تقتضي تقطيع اثنين من المتآمرين شرائح حتى يموتا (٨) . لقد كان في بطرس مناعة ضد الرحمة أو الحنان ، وأعوزه ذلك الاحساس بالعدالة الذى كبح نزوات لويس الرابع عشر أو فردريك الأكبر . أما انتهاكاته لوعوده القاطعة فكانت تنسجم تماما وسنة العصر .

وكان يرى ككل فلاح روسي أن السكر استعفاء معقول من واقع الحياة . فلقد اضطلع بكل أعباء الدولة ، وبمهمة أخطر بكثير هى مهمة تحويل شعب شرقى الى الحضارة الغربية ، ومن ثم بدا الشراب والقصف مع أصحابه تخففا يستحقه . وكان يتقبل من كل قلبه حكمة الفلاحين التى تزعم أن الشراب فرحة الروسي . وكان مما يقيس به قدر الرجل قدرته على احتمال الشراب . وحين كان فى باريس راهن على أن كاهن اعترافه يستطيع أن يشرب أكثر ، ويظل أثبت جنانا ، من الكاهن أمين سر الوزارة الفرنسية ، ومضت المباراة ساعة ، فلما تدحرج الأب الفرنسي تحت المائدة ضم بطرس كاهنه اليه لأنه « أنقذ شرف روسيا (٩) » . وحوالى عام ١٦٩٠ ألف بطرس وخلصاؤه فرقة سموها « جماعة المخمورين من الحمقى والمهرجين » (السوبور) . وانتخب الأمير فيودور رومودانوفسكى قيصرا للسوبور ، وقبل بطرس منصبا أدنى (كما فعل فى الجيش والبحرية) ، وكثيرا ما كان فى الحياة الواقعية يتظاهر بأن رومودانوفسكى هو قيصر روسيا . وكان « سوبور » السكارى هذا مكرسا رسميا لعبادة باخوس وفينوس ، وكانت له شعائر معقدة ، تقلد فى سوقية وفحش شعائر الكنيستين الأرثوذكسية الروسية والكاثوليكية الرومانية ، والكثير من هذه الشعائر الساخرة كان من وضع بطرس نفسه . وشارك السوبور فى كثير من احتفالات الدولة الرسمية . فلما تزوج بطريركه الهزلى نيكيتا زاتوف ، البالغ من العمر أربعة وثمانين عاما ، عروسا فى الستين ، صمم بطرس وأدار احتفالا بذيئا مزيئا (١٧١٥) ، يشارك فيه نبلاء البلاط ونبيلاته جنبا الى جنب مع الدبية والغزلان والتيوس ، ويعزف السفراء على الناي أو الأرغن اليدوى ، ويدق بطرس على الطبل (١٠) .

كان حبه للفكاهة سخابا لا يعرف القيود ، وكثيرا ما أسف حتى استحال تهريجا . وكان بلاطه يعج بالمهرجين والأقزام الذين كانوا عنصرا لا غنى عنه لكل احتفال . وذات مرة ركب القيصر ، الذى ناهز سبعة أقدام طولا وراح يلعب دور جليفر أمام النيلىبوتيين ، فى موكب على رأس أربعة وعشرين قزما راكبين . وكان يقتنى فى فترة من الفترات اثنين وسبعين قزما فى بلاطه ، ويقدم بعضهم على المائة فى فطائر هائلة الحجم . كذلك كان عنده عمالقة ، ولكن أكثرهم أرسلوا هدية لفرديريك وليم ملك بروسيا لينخرطوا فى جيش عمالقتيه « المسلات » . وقد أهدى الى بطرس عدة زنوج وكان يقدرهم تقديرا كبيرا ، وبعث بعضهم الى باريس ليتعلموا ، وأصبح أحدهم قائدا روسيا ، وهو الجد الأكبر للشاعر بوشكين .

الى الآن صورنا بطرس رجلا ما زالت تغلب عليه الفطرة الهمجية ، رجلا من طراز ايفان الرهيب ولكنه مرح ، تواقا الى التحضر ولكنه يحسد الغرب - لا على لطائفة وفنونه بل على جيوشه وأساطيله ، وعلى تجارته وصناعته وثروته . وكانت فضائله موجهة الى هذه الغايات باعتبارها مقومات الحضارة . ومن هنا فضوله الذى لا يشيع . فهو يريد أن يعرف عن كل شيء كيف يسير ، ثم كيف السبيل الى تسييره سيرا أفضل . وقد أضنى مساعديه أثناء رحلاته بالجرى هنا وهناك ليرى هذا وذاك حتى أثناء الليل . كان فى غمرة من أفكاره ، فأذهل بذلك ليبنتز ، الذى كان فى غمرة أخرى من أفكاره ، ولكن أفكار بطرس كانت نفعية لاخفاء فيها . فقد كان له عقل مفتوح لأى شيء قد يعين وطنه على اللحاق بالغرب . وفى وسط أمة متدينة تدينا عابسا ، معادية بتعصب للعقائد الغربية ولأساليب الحياة الدخيلة ، كان مبرا من التحيز كأنه الطفل أو الحكيم ، يجرب الكاثوليكية ، والبروتستنتية ، وحتى الالحاد . كان مقلدا أكثر منه مبتكرا ، نقل الأفكار المجلوبة أكثر مما تصورها ، ولكن فى محاولته لرفع أمته الى مستوى المنافسة مع الغرب ، كان من الأحكم أن تستوعب هذه الأمة خير ما يستطيع الغرب تعليمه أولا ، ثم تحاول التفوق عليه . ان المحاكاة لم تكن قط بمثل هذه الأصالة .

وقد رفعه تفانيه الدعوب فى سبيل هذا الهدف من الهمجية الى

العظيمة . واذا كان قد سخر وأفنى ملايين الروس لتحقيق غايته فانه أفنى نفسه ايضا فى محاولته اعطاء روسيا جيشا عصريا ، وحكومة أكفا ، وصناعات أكثر تنوعا وانتاجا ، وتجارة أوسع ، وثغورا تستطيع أن تتصل بالعالم . كان يتوخى القصد فى كل شيء الا الحياة البشرية ، التى كانت السلعة الوحيدة التى تزخر بها روسيا . وكان أول اجراء له تقريبا حين تقلد زمام الحكم أنه طرد جيش الخسدم وموظفى القصر الذين غص بهم البيت المالك ، وباع ثلاثة آلاف جواد من المرابط الملكية ، وأطاح بثلاثمائة من الطهارة وصبيانهم ، وخفض عدد الجالسين الى مائة الملك حتى فى الأعياد الى ستة عشر على الأكثر ، واستغنى عن الاستقبالات والمراقص الرسمية ، وحول الى الدولة المبالغ التى كانت الى ذلك الحين مخصصة لهذه الكماليات . وكان أبوه الكسيس قد خلف له من الممتلكات الشخصية ١٠٠٧٣٤ ريبلا ديسياتينا (٢٨٩٨٢ فدانا) من الأرض المزروعة وخمسين ألف بيت ، تغل ريعا قدره ٢٠٠٠٠٠ روبل فى العام . فنزل بطرس عن هذا كله تقريبا لخزانة الدولة ، ولم يحتفظ لنفسه الا بالميراث القديم لأسرة رومانوف - وهو ثمانمائة « نفس » فى اقليم نوفجورود . وعلى عكس لويس الرابع عشر ، خفض أعظم قيصر تبوأ عرش روسيا حاشيته فى الواقع الى بضعة أصدقاء ، مع احتفال بين الحين والحين ، غير رسمى وأحيانا صاخب ، ليضفى بعض الحيوية على جو موسكو الرتيب . وكثيرا ما استحال اقتصاده شحا شديدا . فكان يبخرس موظفى قصره أجورهم ، ويقتر فى حساب نفقة القصر اليومية من الطعام ، ولا يدعو أصدقاءه لعداء أو عشاء بل لرحلات خلوية يدفع فيها كل منهم نصيبه ، ولما اشتكت البغايا اللاتى يرفهن عنه من ضالة أتعابهن أجاب بأنه ينقدهن قدر ما ينقد رامى القنابل اليدوية ، وهو رجل تفوق خدماته خدماتهن قيمة .

أما النساء فكن أحداثا غارضة قليلة الخطر فى حياته باستثناء واحد . ذلك أنه لم يكن مرهف الحس بالجمال . نعم كانت له حاجات جنسية ، ولكنه أشبعها دون احتفال . ولم يكن يحب أن ينام وحيدا ، ولكن لا شأن لهذا بالجنس ، وكان أحد الخدم يقاسمه فراشه عادة ، ولعله كان يحتاج الى شخص قريب منه اذا دهمته تشنجاته فى الليل . وحين بلغ السابعة عشرة ، ورغبة فى تهدئة أمه ، تزوج يودوكسيا لوبوخينا ، التى وصفت بأنها « جميلة غبية » ، فلما وجد أحدى

الصفتين أكثر دواما من الأخرى أهملها ، وعاد الى أصحابه ومراكبه .
واتخذ سلسلة من الخليلات العابرات ، كن فى الكثير الغالب وضيعات
الأصل رقيقات الحال . ومرة كان فردريك الثانى ملك الدنمرك يمزح
معه فى أمر اتخاذه محظية فأجاب به بطرس « ياأخى ، ان عاهراتى
لا يكلفننى الكثير ، أما عاهراتك فيكلفنك آلاف الكراونات التى تستطيع
أن تنفقها فى وجوه أفضل (١١) » . وقد عمل ليفور ومينشيكوف
قوادين له ، ونزل مينشيكوف عن خليلته لتكون زوجة بطرس الثانية .
ولا بد أن هذه المرأة أوتيت قدرة فذة رفعتها - كما رفعت تيودورا خليلته
جستنيان من قبل - الى عرش الامبراطورية بعد أن كانت مومسا .

أما هذه المرأة ، التى ستصبح كاترين الأولى ، فقد ولدت حوالى
١٦٨٥ بليفونيا من أسرة وضيعة . ولما تيمت رباها الراعى اللوثرى
جلوك خادمة فى مارينبورج ، وعلمها مبادئ المسيحية ولكنه لم يعلمها
الأبجدية ، ولم تتعلم القراءة قط . وفى ١٧٠٢ حاصر جيش روسي يقوده
شيريميتيف مارينبورج . فلما يئس قائد الحامية من الدفاع قرر أن
ينسف القلعة وهو فيها . ونمى الى القس جلوك ما نوى القائد ، فأخذ
أسرته وخادمته وفر الى المعسكر الروسي . فأرسل الى موسكو ، ولكن
كاترين أبقيت لترفه عن الجنود . وارتقت منهم الى شيريميتيف ،
فمينشيكوف ، فبطرس . فى تلك الحروب والأخطار كان على المرأة
الفقيرة أن تتلطف لتأكل . ويبدو أن كاترين ظلت حينما تخدم كلا من
مينشيكوف والقيصر . وقد أحباها لأنها كانت نظيفة ، بشوشة ، لطيفة ،
متفهمة ، فهى مثلا لم تصر على أن تكون الخليفة الوحيدة ، ووجد
بطرس فيها ترفيها مرحا بعد ضجيج السياسة أو الحرب وغضبات
المخططات الخيورات . ورافقته فى حملاته ، وعاشت عيشة الجنود ،
وقصت شعرها ، وافترشت الارض ، ولم تجفل حين رأت الرجال
يصرعهم الرصاص الى جوارها . فاذا دهمت بطرس احدى نوبات
تشنجه وخاف الجميع أن يلمسوه ، كانت تتحدث اليه ملاطفه ، وتربته ،
وتهدىء روعه ، وتدعه ينام وزأسه على صدرها . واذا افترقا كتب الى
« كاترينوشكا » حبيبته رسائل تفيض حنانا معابنا ولكنه مخلص . ثم
غدت ضرورة لا غنى له عنها . ولم يحل عام ١٧١٠ حتى كانت زوجته
فى كل شيء الا شرعا . وولدت له عدة أطفال . وفى ١٧١١ عاونت على
انقائه فى البروث . وفى ١٧١٢ اعترف بها زوجة له علانية . وفى
١٧٢٢ توجهها امبراطورة .

وكان تأثيرها عليه طيبا من نواح كثيرة . فهذه الصبية الفلاحية هذبت من طباع ذلك الملك الفظ . لقد حدث من ولعه بالمسكر ، وفى عدة مناسبات كانت تدخل الحجرة التى يعاقر فيها الخمر ويقصف مع أصحابه وتأمرة بهدوء قائلة : « عد الى البيت أيها الأب الصغير » فيطيعها . وكانت تغضي عن مغازلاته بعد الزواج . ولم تبذل محاولة للتأثير عليه فى مجرى السياسة ، ولكنها حرصت على أن يدبر القيصر أمر مستقبلها ، ومستقبل أقربائها ، وأصدقائها . وتغلبت على الاستياء العام من جراء رفعها من أصلها الوضيع بسلوكها مسلك ملاك الرحمة ، وفى حالات عديدة أنقذت أشخاصا من العقوبات التى أراد بطرس أن ينزلها بهم ، فاذا أصر على الصرامة كان عليه أن يخفى الأمر عنها . وقد استغلت سلطانها عليه ببيع وساطتها ، وبهذه الطريقة جمعت ثروة فى الخفاء ، استثمرت بعضها بحكمة تحت أسماء مستعارة فى همبورج أو أمستردام . فهل نلومها لأنها نشدت شيئا من الضمان فى زمن كل شيء فيه رهن بنزوة رجل واحد ، وكل روسيا فيه فى قلب وتغير ؟ .

٢ - الثورة البطرسية

ورث بطرس السلطة المطلقة ، وتقبلها قضية مسلمة ، ولم يتطرق اليه قط شك فى ضرورتها . فالحكم بمجلس تشريعى (دوما) من النبلاء (البويار) سيعيد الانفصالية الاقطاعية والفوضى القومية أو الركود ، والحكم بمجلس ديمقراطى مستحيل فى بلد مازال بدائيا من الناحيتين الفكرية والخلقية ، ووافق بطرس كرومويل ولويس الرابع عشر على أن تركيز السلطة والمسئولية هو وحده القادر على تنظيم الخليط البشرى المتنافر ليؤلف منه دولة لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على أهواء الشعب وصد هجمات الأعداء المتعطشين للأرض . ولم ينظر الى نفسه نظرتة الى حكم مستبد بل الى خادم للأمة ومستقبلها ، وكان هذا الى حد كبير ايمانا مخلصا ، نصف صادق على الأقل .

ولقد عمل بهمة لا تقل عن همة أبسط الفلاحين فى مملكته ، فكان عادة يستيقظ فى الخامسة صباحا ويكد أربع عشرة ساعة فى اليوم . لا ينام أكثر من ست ساعات فى الليل ، ولكنه يتقيل . ومثل هذا البرنامج لم يكن بالأمر غير العملى فى صيف سانت بطرسبورج ، حيث النهار يبزغ فى الثالثة صباحا ويستمر الى العاشرة مساء ، أما فى الشتاء

فكان لابد من مواصلة الكثير من هذا البرنامج أثناء الليل الذى يبدأ حوالى الثالثة عصرا ويستمر الى التاسعة من صباح الغد .

وكانت سانت بطرسبورج الرمز ونقطة الارتكاز الأرخميدية لثورة لم تكن موقعا مثاليا لعاصمة دولة نظرا لشدة قربها من الساحل ، ولكنها مع هذا كانت تبعد خمسة وعشرين ميلا من البحر ، فى نقطة يتفرع فيها نهر نيفا الى فرعين ، وكان بطرس يأمل أن يحميها بقلعة كرونستاد التى شادها (٧١٠) على جزيرة فى مدخل الخليج . أما المدينة نفسها فقد أسست فى ١٧٠٣ على غرار أمستردام . واذ كان الكثير من هذا الموقع تغمرة المستنقعات (وكلمة نيفا باللغة السويدية معناها الوحل) فقد بنيت سانت بطرسبورج على دعامات - أو فى عبارة روسية حزينة ، على عظام آلاف العمال الذين جندوا قسرا لارساء هذه الأسس وتشبيد المدينة . وفى ١٧٠٨ أرسل نحو ٤٠.٠٠٠ رجل للقيام بهذا العمل ، وفى ١٧٠٩ أرسل ٤٠.٠٠٠ آخرون ، وفى ١٧١١ أرسل ٤٦.٠٠٠ ، وفى ١٧١٣ أرسل ٤٠.٠٠٠ فوق ما سبق . وكانوا ينقدون نصف روبل فى الشهر ، لم يكن بد من أن يستكملوه بالتسول أو السرقة . وكان أسرى الحرب السويديون الذين استخدموا فى البناء يموتون بالآلاف . واذ لم يكن هناك عجلات يدوية ، فقد كان الرجال ينقلون المواد فى قفاطينهم المرفوعة . كذلك صودر الحجر ، فحرم مرسوم صدر فى ١٧١٤ تشييد بيوت بالحجر فى أى مكان بروسيا الا فى سانت بطرسبورج ، أما فى المدينة نفسها فقد أمر كل شريف فى البلاد بأن يبني له مسكنا من الحجر . وفعل الأشراف محتجين ، اذ كرهوا مناخ المدينة ولم يشاركوا بطرس عشقه للبحر . أما بطرس فكلف بعض مهرة الصناع الهولنديين بأن يقيموا له كوخا كالأكواخ التى رآها فى زاندام ، بحيطان من جذوع الشجر ، وسقف من الحصباء ، وحجرات صغيرة . وكان يكره القصور ، ولكنه سمح ببناء ثلاثة منها للمناسبات الرسمية فى بيترهوف (وهى الآن بترودفوريتس) على المشارف الجنوبية للمدينة . وقد دمر هذا « القصر الصيفى » فى الحرب العالمية الثانية . وفى ضاحية قريبة تدعى تسارسكو سيلو (وهى الآن بوشكين) ، شاد كوخا صيفيا لحبيبته كاتيرينوشكا .

ولم يكن قصده أول الأمر أن يجعل سانت بطرسبورج عاصمة بالاضافة الى كونها ميناء ، فقد كانت شديدة القرب الى عدوته السويد .

ولكنه قرر اجراء هذا التغيير بعد انتصاره على شارل الثانى عشر فى بلطاوه . وكان تواقا الى الهرب من جو موسكو الكنسى القاتم وروحها القومية الضيقة ، وأراد أن يشعر النبلاء المحافظون برياح التقدم تهب عليهم من الغرب . وعليه فقد جعلها عاصمة له فى ١٧١٢ . وحزن أهل موسكو ، وتنبأوا بأن الله مدمر عما قريب تلك المدينة نصف الوثنية . كتب بوشكين يقول : « ان موسكو أحتت رأسها أمام العاصمة الجديدة ، كما تنحنى أرملة الامبراطور أمام امبراطورة شابة (١٢) » . لقت كان فى بطرس من شدة الشوق الى تغريب روسيا ما دفعه الى تحويلها صوب البلطيق وكأنه يجرها اليه جرا ، ثم أمرها أن تتطلع من خلال « نافذته على الغرب X » . وفى سبيل هذا الهدف ، وفى سبيل توفير قاعدة لأسطوله وميناء للتجارة الخارجية ، ضحى بكل الاعتبارات الأخرى . صحيح أن الميناء سيحيط بها الجليد خمسة أشهر فى السنة ، ولكنها ستواجه الغرب وتلمس البحر . وكما أن الدنيبر جعل روسيا بيزنظية ، والفولجا جعلها آسيوية ، فكذلك سيغريها النيفا بأن تكون أيربية (١٤) .

وكانت الخطوة التالية بناء بحرية تحرس مسالك التجارة الروسية خلال البلطيق الى الغرب . وحقق بطرس هذه الغاية فترة ببناء ألف سفينة كبيرة خلال حكمه ، ولكنها كانت مبنية على عجل بناء سيئا ، فتلفت أخشابها ، وتحطمت صواريخها فى الريح ، وبعد موته استسلمت روسيا لقضائها الذى حكمت عليها به الجغرافيا ، وهى أن تكون بلدا حبيسا فى اليابس مغلقا دون الاطلنطى ، منتظرا غزو الفضاء ليقفز متجاوزا حواجزه الى العالم . وبهذا المعنى كانت موسكو على حق : ففوة روسيا ودفاعها كان يجب أن يكونا على اليابس ، بجيوشه ورقعته الواسعة . وعليه فقد تأرت موسكو لنفسها فى ١٩١٧ وأصبحت العاصمة من جديد .

أما أعظم اصلاحات بطرس دواما فهو اعادته تنظيم الجيش .

X الظاهر أن هذه العبارة استعملها أول مرة الكونت فرانشكو الجاروتى فى ١٧٣٩ (١٣) .

وكان قبله يعتمد على قوات مجندة من الفلاحين يقودهم ساداتهم الاقطاعيون الذين لهم عليهم حق الولاء أولا ، وكانوا يفتقرون الى النظام ، ويعوزهم السلاح الجيد . وقد قوض بطرس سلطان النبلاء حين أنشأ جيشا دائما مدده من التجنيد الاجباري ، وعتاده من أحدث أسلحة الغرب ، وضباطه رجال ارتقوا من تحت السلاح ودرّبوا على الهدف الجديد ، هدف خدمة روسيا في فخر لا خدمة اقليم ضيق واقطاعى بغيض . والضرورة الحربية هي التي أملت على بطرس ثورته ، فما كان في استطاعته تطوير روسيا دون أن يفتح لها طريقا الى البلطيق أو البحر المتوسط ، وما كان في استطاعته أن يفعل هذا بغير جيش عصري ، ولا أن يحتفظ بجيش كهذا دون أن يغير اقتصاد روسيا وحكومتها ، ولا أن يغير هذين دون أن يعيد صنع الشعب الروسي من حيث عاداته وأهدافه وروحه . لقد كان عملا ينوء بحمله رجل واحد أو جيل واحد .

وقد استهله على طريقته المندفعة الهوائية بلحى الرجال المحيطين به وزبهم . ففي ١٦٩٨ ، عقب عودته من الغرب ، حلق لحيته الخفيفة ، وأمر كل الذين يريدون الاحتفاظ برضائه أن يحذوا حذوه ، باستثناء بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية ، وبعد قليل أرسل مرسوم الى جميع أرجاء روسيا يقضي بأن يحلق جميع العلمانيين لحاهم ، ولهم أن يبقوا على شواربهم . وكانت اللحية أشبه برمز ديني في روسيا ، أطلقها الأنبياء والرسل من قبل ، وقبل ثمانية أعوام فقط شجب البطريرك أوربان الجالس على كرسي البطريركية آنذاك حلق اللحي بوصفه عملا مهرطقا خارجا على الدين . وقبل بطرس التحدى : فحلق اللحية سيكون رمزا على الحدائة ، وعلى الرغبة في دخول الحضارة الغربية . وأباح للعلمانيين الذين يشعرون بالحاجة الماسة الى الاحتفاظ بعوارضهم أن يحتفظوا بها لقاء ضريبة سنوية تبدأ من كوبك واحد للفلاح حتى تبلغ مائة روبل للتاجر الغنى . يقول كتاب تاريخ قديم « كان الكثير من شيوخ الروس يحرصون على شعر لحاهم أشد الحرص بعد حلقه ليوضع في نعوشهم مخافة ألا يسمح لهم بدخول الجنة يدونه (١٥) » .

وبعد اللحي جاء دور الزى الروسي . هنا أيضا شعر بطرس أن

المقاومة الداخلية للتغريب ستخف بارتداء الزى الغربى . فقطع بنفسه الأكمام الطويلة التى يلبسها من يمثل أمامه من ضباط الجيش . وقال لأحدهم « انظر ، هذه الاشياء تعوق حركتك . فلا أمان لك فى أى مكان ما دمت تلبسها . تارة تقلب كوبا ، وتارة أخرى تغمسها سهوا فى الصلصة . أوص بصنع غطاء لحذائك منها (١٦) . وعليه صدر أمر (يناير ١٧٠٠) يقضى على جميع رجال الحاشية والموظفين فى روسيا باتخاذ الزى الغربى . وكان على الوافدين على موسكو أو الراحلين عنها أن يختاروا بين قص قفاطينهم عند الركبة - وكانوا يرسلونها الى الكاحل - وبين دفع غرامة . كذلك حثت النساء على ارتداء الزى الغربى ، وكانت مقاومتهن أقل من مقاومة الرجال ، فالنساء فى عالم الازياء دعاة للثورة فى كل عام .

وقضى بطرس على حجاب المرأة الروسية بقدوة أسرته أكثر مما يقضى عليه بالقوانين . وكان أبوه الكسيس وأمه ناتاليا سباقين فى هذا الطريق ، ثم وسعته أخته لأبيه صوفيا . أما بطرس فقد دعا النساء للقاءات اجتماعية وشجعهن على أن ينزعن براقعهن ، ويرقصن ، ويعزفن ، ويطلبن العلم ولو على يد المعلمين الخصوصيين . ثم أصدر المراسيم التى تحظر على الآباء تزويج بنيتهم وبناتهم على غير إرادتهم، وتشتترط مضي ستة أسابيع بين الخطبة والزواج ، وفى هذه الفترة ينبغى السماح للخطيبين باللقاء المتكرر ، وبفسخ الخطبة ان أرادا . وابتهجت النساء بالخروج من الحريم « التيريم » وبدأن سباقا فى اتخاذ الازياء الجديدة ، وكان بعض الزيادة فى ولادة الأطفال غير الشرعيين حجة تذرع بها رجال الدين ليقاوموا ثورة بطرس .

ولقد كانت مقاومة الدين له العقبة الكؤود فى سبيله . ذلك أن رجال الاكليروس أدركوا أن اصلاحاته ستنتقص من مكانتهم وسلطتهم . فنأحوا وولولوا على تسامحه مع المذاهب الغربية فى روسيا ، وخامرتهم الظنون فى ايمانه بأى عقيدة دينية . وسمعوا فى اشـمئزاز شديد بالتقليدات الساخرة التى كان هو وخلصاؤه يهزأون فيها بالطقوس الأرثوذكسية . وكان بطرس من ناحيته يغيظه تحويل القوى البشرية الى الاديان الشاسعة التى لا حصر لها ، ويشتهى الموارد الهائلة التى

تتمتع بها هذه المؤسسات . فلما مات البطريرك أوريان (أكتوبر ١٧٠٠) ، امتنع بطرس عمدا عن تعيين خلف له ، وأصبح هو نفسه رئيسا للكنيسة على نحو ما فعل هنرى الثامن فى انجلترا ، وتزعج حركة اصلاح دينى فى روسيا . وظل منصب البطريرك شاغرا احدى وعشرين سنة ، فحرمت الكنيسة الارثوذكسية زعيما يتصدى لاصلاحات بطرس . وفى ١٧٢١ ألغى المنصب كله ، وأحل مكانه « مجمعا مقدسا » من رجال الكنيسة يعينه القيصر ويخضع لوكيل علمانى . وفى (١٧٠١ نقل ادارة الممتلكات الكنسية الى احدى مصالح الحكومة ، واختزل اختصاص المحاكم الكنسية ، وأخضع تعيين الاساقفة لتصديق الحكومة . ومنعت مراسيم أخرى رسامة المتصوفين أو المتعصبين ، وحدثت من عدد مراكز صنع المعجزات . وقضى على الرجال ألا يقطعوا على أنفسهم نذور الرهبنة قبل الثلاثين ، وعلى النساء ألا ينذرن أنفسهن نهائيا للرهبنة قبل الخمسين (١٧) . وتقرر الزام الرهبان بالقيام بعمل نافع . وأجرت الحكومة تعدادا للممتلكات والايرادات الديرية ، وترك بعض الايراد للأديار ، وخصص البناقى لانشاء المدارس والمستشفيات (١٨) .

واستسلم معظم الاكليروس لحركة الاصلاح الدينى الروسى هذه ، وهو اصلاح لم يمس العقيدة كما لم يمسه هنرى الثامن . وندد بعض المخالفين ببطرس عدوا للمسيح ، وأهابوا بالشعب أن يرفضوا طاعته ودفع الضرائب له . فأمر بالقبض على زعماء هذا التمرد ، وتصرف معهم بطريقته العادية . فجلد البعض ونفوا الى سيبيريا ، وسجن البعض مدى الحياة ، ومات أحدهم من التعذيب ، وأحرق اثنان منهم حرقا بطيئا حتى الموت (١٩) .

وفى غير هذا كان بطرس متمشيا مع الغرب فى التسامح الدينى . فحمى المخالفين من الاضطهاد ما داموا بعيدين عن السياسة . وفى سانت بطرسبورج ، وبهدف تشجيع التجارة ، سمح ببناء الكنائس الكلفنية واللوثرية والكاثوليكية على « النيفسكى بروسبكت » ، الذى أصبح يلقب « مكان التسامح (٢٠) » وحمى الرهبان الكبوشيين الذين دخلوا روسيا ، ولكنه نفى اليسوعيين (١٧١٠) لمثايرتهم الشديدة على

الدعوة لكنيسة روما . وكانت اصلاحات بطرس الدينية بوجه عام أبقى اصلاحاته كلها ، فقد أنهت العصور الوسطى فى روسيا .

ثم غيرت عملية ضخمة من العلمنة حياة روسيا وروحها ، من تحكم الكهنة وملاك الأراضي الى حكم الدولة الذى كاد يصل الى حد التنظيم العسكرى الصارم . فقد أخضع بطرس النبلاء لارادته ، وأكرههم على خدمة الشعب ، وأعاد تنظيم مراتب المجتمع حسب أهمية الخدمة الاجتماعية التى تؤدى . فنبتت أرستقراطية جديدة ، تتألف من موظفى الجيش والبحرية ودواوين الدولة . ورأس الحكومة مجلس شيوخ من تسعة رجال (زيدوا بعد ذلك الى عشرين) يعينهم القيصر ، وكان يديرها تسع هيئات أو « كليات » تختص بالضرائب والدخل ، والمصرفيات ، والحسابات والرقابة ، والتجارة ، والصناعة ، والعلاقات الخارجية ، والحرب ، والبحرية ، والقضاء ، وكان حكام الاقاليم الاثنا عشر ، أو « الجوبيرنيا » والمجالس التى تحكم المدن ، مسئولين أمام مجلس الشيوخ . وقسم سكان كل مدينة الى طبقات ثلاث : التجار الأغنياء والمهنيين ، والمدرسين والحرفيين ، والاجراء والعمال ، والطبقة الاولى وحدها هى التى يجوز انتخابها للمجلس البلدى (الماجسترا) ، والطبقتان الاوليان وحدهما لهما حق التصويت ، ولكن لكل دافعى الضرائب الذكور الحق فى الاشتراك فى اجتماعات المدينة . وظهر « المير » أو مجتمع القرية ، لا بوصفه مؤسسة ديمقراطية ، بل هيئة مسئولة بجملتها عن ضريبة الرعوس التى أدخلت فى ١٧١٩ . وحد الاشراف المركزى من الاستقلال المحلى ، ولم يكن هناك أى تفكير فى النظم الديمقراطية ، لأن التغيير السريع الذى اختطه بطرس لا سبيل الى تحقيقه - ان كان هناك سبيل على الاطلاق - الا بالسلطة الدكتاتورية .

ووجب أن يشمل ذلك التغيير الاقتصاد كما شمل السياسة ، لأن مجتمعا زراعيا خالصا لا يمكن أن يحتفظ باستقلاله طويلا أمام دول أغنتها الصناعة وزودتها بالسلاح . وقد أورد اقتصادى ألماني عاصر ذلك العهد رأيا سيثبت صوابه القرنان التاليان له - وهو أن الامة التى لا تصدر فى الأكثر غير الخامات والحاصلات الزراعية لن تلبث أن

تخضع للدول المنتجة والمصدرة للسلع المصنوعة أولا (٢١) . وعلى ذلك لم يوجه بطرس للزراعة الا القليل من اهتمامه . وبدلا من أن يخفف من رق الأرض طبقه على الصناعة . وقد علم الفلاحين بقدوته الشخصية كيف يحصدون غلتهم وأمر بأن يستبدل بالمنجل ذات المقبض القصير sickles مناجل ذات مقبضين seythes . وقد ألف الروس حرق أراضي الغابات للحصول على رماد مخصب للتربة ، فحظر بطرس هذا العمل ، لأنه احتاج للأواح الخشب لسفنه ، وللأشجار لصواريه . وأدخل زراعة التبغ ، والتوت ، والكروم ، وافتتح تربية الخيل والغنم فى روسيا .

على أن هدفه الأهم كان التصنيع السريع . وكانت أولى مشاكله توفير الخامات . فشجع نشر التعدين ، ومنح المكافآت الحافزة لرجال مثل نيكييتا ديميدوف والكسندر ستروجانوف أبدوا الجرأة والمهارة فى التعدين وتشغيل المعادن ، وحث ملاك الأراضي على أن يشجعوا أو يسمحوا باستخراج المعادن من أراضيهم ، فان قصروا فى هذا فلغيرهم أن يستخرجوها لقاء رسم اسمى فقط يؤدونه لهم . فما وافى عام ١٧١٠ حتى كفت روسيا عن استيراد الحديد ، وقبل موت بطرس كانت تصدره (٢٢) .

ثم استقدم مهرة الصناع ومديرى الصناعة الأجانب ، وحض الروس من جميع الطبقات على تعلم الفنون الصناعية . وافتتح انجليزى بموسكو مصنعا لدبغ الجلود وصنع الأحذية ، وأمر بطرس كل مدينة فى روسيا بأن تبعث وفدا من الحذائين الى موسكو لتعلم أحدث طرق صناعة الأحذية بنوعيتها الواطىء والعالى ، وهدد المتمسكين بالأساليب العتيقة فى هذه الصناعة بتشغيلهم فى سفن العبيد . ورغبة فى تشجيع صناعة النسيج الروسية لم يلبس غير المنسوجات الوطنية بعد أن نشطت صناعتها ، وحظر على المسكوفيين شراء الجوارب المستوردة . وما لبث الروس أن صنعوا المنسوجات الجيدة . وروع اميرال بحرى أصحاب التقاليد ، وأبهج القيصر ، بصنعه المقصبات الحريرية . وصنع فلاح طلاء (لاكمه) يفوق أى نظير له فى « أوروبا » باستثناء الطلاء البندقى وقبل أن ينتهى حكم بطرس كان فى روسيا ٢٢٣ مصنعا ، بعضها

لا يستهان بحجمه ، واستخدمت صناعة الحرير بموسكو ١٦٦٢ عاملا ،
واستخدم أحد مصانع النسيج ٧٤٢ رجلا ، وآخر ٧٣٠ ، ووظفت مؤسسة
للتعدين ٦٨٣ شخصا (٢٣) . نعم كان فى روسيا مصانع قبل بطرس ،
ولكن ليس على هذا النطاق . وكثير من المصانع الجديدة بدأتها الحكومة
ثم سلم للأهالى ليديروه ، ولكنهم مع هذا كانوا يتلقون اعانات من
الدولة ، ويخضعون لأشراف دقيق من الحكومة . وكانت الرسوم
الجمركية المرتفعة الحامية درعا يقى الصناعة الوليدة من المنافسة
الأجنبية .

ولجأ بطرس الى تجنيد الرجال قسرا ليزود بهم المصانع . ولم
يتوفر من العمال الا القليل ، فحول الفلاحين صناعا طوعا أو كرها .
وخول لرجال الصناعة أن يشتروا الأقدان من ملاك الأراضى ويشغلوهم
فى المصانع . وزودت المشاريع الكبرى بفلاحين منقولين من أراضى
الدولة ومزارعها (٢٤) . وحدث ما يحدث فى معظم المحاولات
الحكومية للتصنيع السريع ، اذ لم يستطع القادة الانتظار ريثما تتغلب
غريزة التملك على العادات والتقاليد ، وتقود العمال من ميادين
وأساليب عتيقة الى أعمال وأنظمة جديدة . فطورت قنية صناعية ، على
كره من بطرس بوجه عام ، وعن عمد من خلفائه . واعتذر بطرس عنها
فى مرسوم ١٧٢٣ ، فقال :

« ألا يصنع كل شيء (أول الأمر) بالاكراه ؟ أما أن الراغبين فى
الاشتغال بالصناعة قللة فصحيح ، لأن شعبنا أشبه بالأطفال ، يأبون البدء
بتعلم الأبجدية ما لم يكرههم عليها معلموهم . ويبدو لهم هذا التعلم
غاية فى الصعوبة أول الأمر ، ولكنهم ما ان يتعلموها حتى يحمّدوا
لمعلميهم صنيعهم ، ونحن نسمع اليوم الكثير من آيات الحمد والشكر
على الاصلاحات التى أتت أكلها فعلا . . . فعلىنا فى مسائل الصناعة
أن نعمل ونلزم ، ونعين بالتعليم (٢٥) » .

ولكن الصناعة لا تتطور الا بتجارة تبيع منتجاتها . ولكى يشجع
بطرس التجارة رفع المكانة الاجتماعية لطبقة التجار . وفرض نمو
صناعة كبيرة لبناء السفن فى أركانجل وسانت بطرسبورج . وحاول
النشاء بحرية تجارية تحمل السلع الروسية فى سفن روسية ولكنه أخفق

لأن الفلاح الروسي الذى ضربت جذوره فى الأرض وانغلق فيها لم يقبل على البحر برغبة أو كفاية . وفى داخل روسيا نفسها كانت المسافات الشاسعة والطرق الوعرة تعوق التجارة . ولكن الأنهار كانت وفيرة ، تغذيها ثلوج الشمال وأمطار الجنوب ، فإذا تجمدت الأنهار فى صلابة تتحمل بفضلها الأثقال شأنها شأن الطرق المتجمدة . وكانت الحاجة ماسة لربط هذه الأنهار بقنوات - تصل النيفا والدويننا بالفولجا ، والفولجا بالدون ، فيرتبط البلطيق والبحر الأبيض بالبحر الأسود وبحر قزوين . وأرسي بطرس الأساس لهذه المجموعة الكبيرة ، وافتتح فى ١٧٠٨ القناة الموصلة بين النيفا والفولجا ، ولكن كان لا بد أن أن تنقضي عهود ملكية عديدة قبل أن تكتمل هذه الشبكة ، وقد لقى الألوف من العمال حتفهم فى هذه المحاولة .

وأكرهت الحرب والمشروعات المتنوعة بطرس على جمع رأس المال بمقادير لم يسبق لها نظير فى روسيا . وقد حصل على بعضه باعطاء الحكومة احتكار انتاج وبيع الملح ، والتبغ ، والقار ، والدهون ، والبتواس ، والراتنج ، والغراء ، والراوند ، والكافيار ، وحتى التوابيت المصنوعة من البلوط . وكانت هذه التوابيت تباع بربح بلغ أربعمائة فى المائة ، أما الملح فتواضع ربحه الى مائة فى المائة ، ولكن القيصر أدرك أن الاحتكارات تعوق الصناعة والتجارة ، فبعد أن أبرم الصلح مع السويد ألغاهما بجرة قلم وأطلق التجارة الداخلية من عقالها . وبقيت التجارة الخارجية خاضعة لرسوم التوريد والتصدير ، ولكنها كادت تبلغ عشرة أضعافها بين ١٧٠٠ وموت بطرس فى ١٧٢٥ . وكان أكثرها تنقله سفن أجنبية ، وما بقى منها فى أيد روسية كانت تعرقله الرشوة التى استشرت بحيث لم تجد فيها حتى عقوبات بطرس الوحشية .

أما نظام الضرائب فكان شاملا . فقد كلفت هيئة خاصة عينتها الحكومة بوضع نظام لضرائب جديدة وإدارته . ففرضت الضرائب على القبعات والأحذية ، وخلايا النحل ، والحجرات ، وأقباة الخمور والمؤن ، والمداخن ، والموالييد ، والزيجات ، واللحى . أما الضريبة على الأسر فقد عطلتها الهجرات الجماعية غير المنظمة ، فاستبدل بها

بطرس ضريبة على « الأنفس » أينما وجدت ، ولم تطبق هذه الضريبة على النبلاء أو الاكليروس . وارتفعت إيرادات الدولة من ٤٠٠.٠٠٠ روبرل في ١٦٨٠ الى ٨٥٠.٠٠٠ في ١٧٢٤ - خصص خمسة وسبعون في المائة منها للجيش والبحرية . ونصف هذه الزيادة كانت غير واقعية بسبب انخفاض قيمة العملة بمقدار النصف في عهد بطرس ، لأنه لم يستطع مقاومة اغراء الربح المؤقت بغش العملة .

وكان افتقار الجميع - من الملك الى الفلاح - للنزاهة معطلا لسير الاقتصاد ، وجمع الضرائب ، وأحكام القضاء ، وتنفيذ القوانين . وقد قرر بطرس الحكم بالأعدام على جميع الموظفين الذين يقبلون « الهدايا » ولكن احد مساعديه نبهه الى أنه ان نفذ هذا القانون فلن يجد بعد حين غير موظفين أمواتا . ومع ذلك قتل بعضهم . من ذلك ان الأمير مانفي جاجارين ، حاكم سيبيريا ، أثرى ثراء صارخا ، فزين نمثاله المصنوع للعدراء بمجوهرات بلغت قيمتها ١٣٠.٠٠٠ روبرل ، وأراد بطرس أن يعرف كيف حصلت عليها العدراء ، فلما عرف شنق جاجارين ، وفي ١٧١٤ قبض على عدد من كبار الموظفين بتهمة سرقة الحكومة والشعب ، وكان من بينهم نائب حاكم سانت بطرسبورج ، ورئيس تموين الدولة ، ورئيس الأميرالية ، وحاكما نارفا وريفيل ، وعدد من أعضاء السناتو . وشنق بعضهم ، وحكم على بعضهم بالسجن مدى الحياة ، وجدعت أنوف البعض ، وجلد البعض بالعصي . ولما أمر بطرس بوقف الجلد توسل اليه الجنود الذين كانوا يقومون به قائلين « اسمح لنا يا أبتاه أن نجلدهم أكثر قليلا لأن هؤلاء اللصوص سرقوا كل شيء حتى خبزنا (٢٦) » . واستشرى الفساد ، وزعم مثل روسي أن المسيح نفسه كان من الجائز أن يسرق لولا أن يديه شدتا الى الصليب .

وفي وسط هذا النضال ، نضال ارادة واحدة تريد تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية لنصف قارة ، وجد بطرس وقتا حاول فيه احداث ثورة ثقافية أيضا . لقد كان يكره الخرافة ، ويتوق الى أن يحل محلها التعليم والعلم . وكان الروس الى عهده يؤرخون من خلق العالم كما افترضوه ، ويبدأون السنين بشهر سبتمبر . ففي ١٦٩٩ جعل بطرس

التقويم الروسي يتفق مع التقويم اليولياني ، كما تستعمله الدول البروتستنتية ، فتقرر أن تبدأ السنة بعد ذلك بيناير ، وتؤرخ من مولد المسيح . وتذمر الشعب ، فكيف يختار الله منتصف الشتاء زمانا للخليقة ؟ وأنفذ بطرس ما أراد ، ولكنه لم يجرؤ على تطبيق التقويم الجريجورى ، الذى قبلته أوربا الكاثوليكية فى ١٥٨٢ ، فحذف عشرة أيام كما اقتضته تلك « الحيلة البابوية » كان يسلب عدة قديسين أرثوذكس أعيادهم المقدسة .

ووفق القيصر الذى لم يهدأ له بال فى مشروع آخر لا يقل عننا ، هو اصلاح الأبجدية . ذلك أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تستعمل الأبجدية السلافونية القديمة ، ولكن الطبقات الصناعية والتجارية اقتبست أبجدية أساسها الحروف اليونانية . فأمر بطرس بأن تطبع بها كل الكتب غير الدينية . واستورد المطابع واستقدم الطابعين من الأراضى المنخفضة ، وبدأ (١٧٠٣) أول جريدة روسية ، وهى « جازيتة سانت بطرسبورج » ، وأمر بنشر كتب فى التكنولوجيا والعلوم ، ومول النشر ، وأسس مكتبة سانت بطرسبورج ، وأنشأ المحفوظات الروسية بأن جمع فى المكتبة مخطوطات الأديار وسجلاتها وأخبارها . وفتح عدة معاهد تقنية وأمر بأن يلتحق بها أبناء الطبقة الارستقراطية . وحاول أن ينشئ فى كل اقليم « مدرسة للرياضيات » ، وفى موسكو أنشأ مدرسة ثانوية « جمنازيوم » على غرار المدارس الألمانية لتعليم اللغات والأدب ، والفلسفة ، ولكن هذه المدارس لم يكتب لها طول البقاء . وفى ١٧٢٤ نظم أكاديمية سانت بطرسبورج ، وجلب اليها علماء أفاضل كجوزيف دليل ليعلم الفلك ، ودانيال برنوللى ليعلم الرياضيات . وبالحاح من لپينتز كلف (١٧٢٤) فيتوس بيرنج ، الملاح الدنمركى ، بأن يرأس بعثة الى كمشتكا ليتبين هل آسيا وأمريكا متصلتان طبيعيا . وقد أقلع بيرنج بعد وفاة بطرس .

أما المسرح الروسي فكان على عهد الكسيس لايقدم غير الحفلات الخاصة . فرخص بطرس مسرحا على الميدان الأحمر وفتحها للجمهور ، واستقدم الممثلين الألمان ، فمثلوا خمس عشرة مأساة وملهاة ، منها بعض ملامى موليير . وجلب الموسيقيين الأجانب لتأليف الأوركسترات . وأدخلت فى روسيا السوناتا والكونشرتو ، واتخذت الموسيقى العلمانية

الروسية أشكالاً أوربية من تآلف الألحان وامتزاجها . وأوصى بطرس بشراء اللوحات والتماثيل ، ولا سيما الإيطالية منها ، وجمعها هي وغيرها من الآثار الفنية في متحف للفن في سانت بطرسبورج فتحه لجميع الزوار مجاناً ، وأمر بتقديم المشروبات الخفيفة لهم (٢٧) . ووفد المصورون الأجانب ليرسموا لوحات الأشخاص بأسلوب الغرب . وبنيت بعض الكنائس أيام الكسيس ، ولكن قل منها ما بنى أيام بطرس . ووجد المعماريون الآن أنه أربح لهم أن يبنوا القصور .

ولم يزدهر أدب عظيم خلال هذه الثورة التي اقتلعت القديم من جذوره ، فلا بد من انقضاء وقت حتى يمكن الاحساس بدفعة بطرس في الشعر . وقد صدر كتاب جرىء قبل وفاته بعام ، وهو « كتاب الفقر والغنى » بقلم ايفان بوسوشكوف الذي وبخ الروس على همجيتهم وأميتهم ، وظاهر بقوة اصلاحات القيصر . وقد جاء في الكتاب « من سوء الحظ أن مليكنا العظيم يكاد يقف وحده ، ومعه عشرة أشخاص ، في محاولة رفع الأمة في حين يحاول الملايين خفضها (٢٨) » . وندد ايفان بظلم الفلاحين ، وطالب بقضاء نزيه تجريه محاكم متحررة من السيطرة الطبقية ، وصدّم القيصر بأن طلب جمع ممثلين لجميع الطبقات ليكتبوا دستوراً جديداً ومدونة قوانين لروسيا . وقبض على بوسوشكوف بعد موت بطرس ببضعة شهور ، ومات في السجن في ١٧٢٦ .

٣ - العقابيل

ازدادت المقاومة لأصلاحات بطرس من سنة الى سنة . ذلك أن الروس ألفوا الفقر ، والعذاب ، والاستبداد ، ولكنهم لم يسبق لهم قط - حتى تحت حكم ايفان الرهيب - أن أثقلوا بمثل هذه الأعباء ، أو دفعوا مثل هذه الضرائب ، أو ماتوا بمثل هذه الكثرة لا في ساحة القتال فحسب بل في أشغال السخرة جوعاً وبرداً واعياء ومرضاً . كتب لينفور صديق بطرس المحبوب في ١٧٢٣ يقول « ان الشقاء يشتد من يوم الى يوم ، والشوارع تمتلئ بناس يحاولون بيع أطفالهم . . . والحكومة لا تدفع مالا لا للجنود ، ولا لرجال البحرية ، ولا لموظفي الإدارات

الحكومية ، ولا لأحد (٢٩) » . وحير القيصر ازدياد الفقر وسط
اصلاحاته ، فجعل التسول أو التصدق على المتسولين جريمة ، وأقام
ستين منظمة لتوزيع الصدقات .

ولكن التسول استمر ، والجريمة انتشرت . وكاد يسيطر على
الطرق الأقبان الأبقون من الرق ، والجنود والعمال المسخرون الذين
هجروا معسكراتهم معرضين أنفسهم للموت . ونظموا أنفسهم أحيانا
أفواجا عدتها مئات حاصرت المدن واستولت عليها . ذكر قائد في
١٧١٨ « ان موسكو مباءة للسطو ، وكل شيء فيها خرب ، وعدد
الخارجين على القانون يتضاعف ، واعدام المذنبين لا يتوقف أبدا » .
وأقام المواطنون المتاريس في بعض شوارع موسكو ، وأحاطوا بعض
البيوت بأسوار عالية اتقاء اللصوص . وحاول بطرس منع السرقة
بالعقاب الصارم ، فأمر بأن يشنق قطاع الطرق الذين يقبض عليهم ،
وأن تجدع أنوف الساطين على المنازل ، الخ . ولكن هذه العقوبات لم
تردع المجرمين . فقد شقت الحياة على الفقراء حتى لم يصبح هناك
فرق يذكر في نظرهم بين عقوبة الأعدام وبين السجن المؤبد الذي
يفضونه راسقين في أغلال القنية أو السخرة ، واحتملوا أشنع ضروب
العذاب يتجلد من ماتت أعصابهم .

واشتد كره الناس لبطرس حتى لقد عجب الكثيرون أن أحدا لم
يقتله . كرهه النبلاء لأنه أرغمهم على خدمة الدولة ، ولأنه رفع
الطبقات الصناعية والتجارية مقاما وثراء ، وكرهه الفلاحون لأنه
سخرهم في عمل اقتلعهم من أوطانهم ، ومن أسرهم في كثير من
الحالات ، وكرهه رجال الكنيسة لأنه الوحش الوارد ذكره في سفر
الرؤيا ، والذي جعل المسيح ذاته خادما للحكومة ، وارتاب فيه كل
الروس تقريبا لاختلاطه بالأجانب واستيراده الأفكار « الوثنية » ،
وخافت روسيا كلها بأسه لعنفه ولعقوباته الوحشية . ان روسيا لم ترد
هذا التغريب ، انها تمقت الغرب مقنا شديدا ، والاحتفاظ بروحها
القومية كان يقتضيها أن تكون « سلافية الميول » ونشبت حركات تمرد
يأئس بموسكو ١٦٩٨ ، وبأستراخان في ١٧٠٥ ، وعلى طول الفولجا
في ١٧٠٧ ، وفي أوقات متفرقة في أرجاء الامبراطورية وخلال
العهد كله .

أما بطرس فقد رمز الى الصراع وزاده حدة بالعودة الى الغرب مرتين . ففي خريف ١٧١١ ذهب الى ألمانيا ليرأس فى تورجو مراسيم زواج ابنه . وهناك استقبل ليبنتز ، الذى اقترح عليه انشاء أكاديمية روسية كان يرجو الفيلسوف المتعدد المواهب أن يرأسها . وعاد القيصر الى سانت بطرسبورج فى يناير ١٧١٢ ، ولكنه فى أكتوبر ، وسقط حملة شنها الى السويد ، استشفى بمياه كارلسباد ، وزار فتنبرج . وأخذ بعض القساوسة اللوثريين الى البيت الذى قذف فيه لوثر محبرة على الشيطان ، وأروه الحبر على الحائط ، وطلبوا اليه أن يكتب تعليقا عليه ، فكتب « ان الحبر جديد تماما ، فواضح اذن أن القصة غير صحيحة (٣٠) » . وعاد بطرس الى عاصمته الجديدة فى أبريل ١٧١٣ . وفى فبراير ١٧١٦ انطلق الى الغرب مرة أخرى ، فزار ألمانيا وهولندا ، وفى مايو ١٧١٧ بلغ باريس آملا أن يزوج ابنته اليزابيث للويس الخامس عشر . ولما التقى بطرس بالملك الصبى ذى السبعة الأعوام ، رفعه ليقبله ، وبعد أيام ، حين كان لويس يستقبله أمام القصر الملكى ، رفعه بطرس كأنه طفل وحمله صاعدا السلم مما جعل أفراد الحاشية يرتعدون . وأنفق فى باريس ستة أسابيع متفرجا ، مستوعبا كل جوانب الحياة فى المدينة - السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية . وصوره الرسامان ريجو وناتيهيه . وزار مدام دمانتون العجوز فى سان - سير . ومن باريس ذهب الى سبا ، وظل خمسة أسابيع يشرب المياه هناك ، لأنه كان اذ ذاك يشكو عللا كثيرة - ولحقت به زوجته كاترين فى برلين . واكتشفت أن له خليعة ، ولكنها اغتفرت ذلك جريا على أرقى تقاليد البيوت المالكة الأوروبية . فلما وصل الى سانت بطرسبورج (٢٠ أكتوبر ١٧١٦) واجه أزمة من أسوأ الأزمات فى حياته .

ذلك أن ابنه ألكسيس ، الذى كان يرجو أن يورثه ملكه ويترك له المضي قدما فى اصلاحاته ، انتهى الى كره الكثير من تلك البدع ، وكره الأساليب التى كانت تفرض بها فرضا . وكان فى بدنه وعقله ابن يودوكسيا أكثر منه ابن بطرس . وكان ضيئل الجسم ، هيايا ، ضعيفا ، ولوعا بالكتب ، مخلصا للكنيسة الارثوذكسية ، لأنه ربى على التقوى بينما كان بطرس منطلقا الى الحرب والغرب . وحين بلغ ألكسيس

التاسعة رأى أمه تقصي الى الدير (١٦٩٩) ، فلما بلغ الحادية عشرة سمع الكهنة يتحسرون على صهر أجراس الكنيسة لصنع المدافع ، وسأل أباه لم يذهب الروس خارج روسيا للقتال فى سبيل مدينة نائية كنارفا ، واشمأز بطرس حين وجد أن وريثه لا يستطيع سفك الدماء .

وبينما كان بطرس مشغولا ببناء سانت بطرسبورج ، مكث ألكسيس بموسكو ، وأحب كنائسها وأساليب حياتها القديمة . وقد كره تمزيق البطريركية ومصادرة الدولة للممتلكات الديرية . وعلمه كاهن اعترافه أن يدافع عن الكنيسة دائما أيا كان الثمن . وغدا ألكسيس المعبود ومعقد الآمال للجماعات الكنسية والارستقراطية التى أبغضت علمنة بطرس لروسيا وتغريبها ، وانتظرت بفارغ الصبر الوقت الذى يجلس فيه على العرش ذلك الفتى المتدين المطواع . وكان بطرس لا يراه الا لماما ، فاذا رآه وبخه عادة ، وضربه أحيانا ، كما فعل حين اكتشف القيصر أن الصبى زار أمه خفية فى ديرها . وأوشك استياء الفتى أن يكون كرها . واعتراف لكاهنه اجناتيف أنه يتمنى لو مات أبوه . ولم ير اجناتيف فى هذا اثما ، فقال لألكسيس « ان الله سيغفر لك فكلنا نتمنى موته ، لأنه حمل الشعب أحمالا ثقالا (٣١) » .

وفى ١٧٠٨ بعث بطرس ابنه الى درسدن ليدرس الهندسة وفن التحصين . وفى ١٧١١ تزوج ألكسيس بمدينة تورجو شارلوت كرسطينا صوفيا ، أميرة برنزويك - فولنفوتل . ولم يستطع أن يغتفر لها رفضها التخلّى عن مذهبها اللوثرى واعتناق المذهب الأرثوذكسي الروسي . واتخذ الخليلات حتى من المواخير ، وأفرط فى الشراب . وعقب أن ولدت له شارلوت طفلا زارها بصحبة مومس (٣٢) . وبعد عام ماتت زوجته وهى تلد (١٧١٥) . واستدعاه بطرس الى سانت بطرسبورج بخطاب غاضب حوى عبارات تنذر بالويل والثبور « اننى لا أضن بحياتى ، ولا بحياة أحد من رعاياى ، ولن استثنيك من هذه القاعدة ، فعليك أن تصلح من حالك ، وأن تجعل نفسك نافعا للدولة ، فان لم تفعل حرمتك من الميراث (٣٣) » . وحاول ألكسيس تهدئه نائبة أبيه بالتخلّى عن حقوقه فى العرش ، وقال انه سيقنع بالعيش عيشة هادئة فى الريف . وشعر بطرس بأن هذا ليس حلا . وفى ٣٠ يناير ١٧١٦ كتب الى ألكسيس يقول :

« لا أستطيع تصديق يمينك ... لقد قال داود ان كل البشر كذابون ، فحتى لو شئت الوفاء بها لثناك عن ذلك ذوو اللحي الطويلة ... فكل الناس يعرفون أنك تكره أعمالى التى أعملها فى سبيل هذه الأمة ، غير ضنين بصحتى ، وأنت بعد موتى ستقضى عليها ، ولهذا السبب فان بقاءك كما تريد أن تبقى ، بغير وجهة محددة ، ضرب من المحال . وعليه فاما أن تغير من خلقك ، وتصبح دون نفاق خلفى الكفاء ، أو تصبح راهبا . فأجبنى فورا . . . فان لم تفعل عاملتك كما عامل المجرمين (٣٤) » .

وأشار عليه أصدقاؤه بالرهبانية ، وقال أحدهم ، « ان قلنسوة الراهب لا تسمر فوق انسان ، ففى الامكان خلعتها » وكتب الكسيس لأبيه بأنه راغب فى الرهبانية . ولانت قناة بطرس ، وأمهله نصف سنة ليستقر على رأى . ووصل القيصر الى الغرب (فبراير ١٧١٦) . وفى ٢٩ يونيو نصحت ناتاليا ، أخت بطرس ، الكسيس بأن يرحل عن روسيا ويضع نفسه فى حمى الامبراطور . وفى سبتمبر كتب بطرس لابنه من كوبنهاجن يقول ان نصف العام قد انتهى ، وان على الكسيس أن يدخل الدير فورا ، أو يلحق بأبيه فى الدنمرك مستعدا للخدمة العسكرية . وتظاهر الكسيس بأنه ذاهب الى أبيه ، وحصل على المال من منشيكوف ومجلس الشيوخ ، ثم انطلق لا الى كوبنهاجن بل الى فيينا (١٠ نوفمبر) . وهناك التمس من نائب المستشار الامبراطورى أن يحصل له على حماية الامبراطور شارل السادس قائلا « ان أبى غضوب محب للثأر الى حد لا يصدق ، وهو لا يرحم أحدا ، ولو ردى الامبراطور الى أبى لكان فى هذا حتفى (٣٥) » . وأرسله نائب المستشار الى قلعة ايرنبيرج بالتيرول . وهناك ظل مختبئا متنكرا ، تحت الرقابة ولكنه مزود بكل أسباب الراحة ، وسمح له بالاحتفاظ بخليته أفروسينيا مرتدية ثياب الوصيف . وتعقبه جواسيس بطرس الى مخبئه ، وأنذر الكسيس ففر الى نابلى حيث كان تحت الحراسة فى « كاستيل سانتيلمو » . وعثر عليه عملاء بطرس وألخوا عليه فى العودة الى روسيا واثقا من رافة أبيه به . فقبل شريطة أن يأذن له بطرس بالعيش مع أفروسينيا معتزلا فى الريف . ووعده بطرس بهذا فى خطاب بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٧١٧ . ورتب الكسيس أن تظل أفروسينيا بايطاليا حتى تضع مولودها . وكان أثناء رحلته الطويلة الى روسيا يبعث لها بارق الرسائل .

ووصل موسكو في آخر يناير . وفي ٣ فبراير استقبله بطرس في اجتماع مهيب ضم كبار رجال الدولة والكنيسة . والتمس الكسيس العفو من أبيه وهو جاث ودموعه تسيل . ومنحه بطرس العفو ، ولكنه حرره من وراثته العرش ، وأعلن ابن كاترين ، بطرس بتروفيتش ، البالغ من العمر ثلاث سنين ، وريثا للعرش . وأقسم الكسيس يمين الولاء لولى العهد الجديد . وعلق بطرس عفوَه الآن على شرط ، هو اعتراف الكسيس بشركائه في مقاومة اصلاحات أبيه . وورط الكسيس الكثيرين ، فقبض عليهم وعذبوا لانتزاع المزيد من التفاصيل منهم ، ونفى عديدون الى سيبيريا ، وأعدم البعض بعد أن عذبوا أبشع تعذيب . أما الكسيس ، الذي ترك حرا في الظاهر ، فقد أسكن بيتا قريبا من قصر القيصر في سانت بطرسبورج ، ومنح معاشا سنويا قدره أربعون ألف روبل . وكتب الى أفروسينيا يقول ان أباه يحسن معاملته وأنه دعاه الى مائدته ، وكان يتطلع الى مجيئها ، والى الحياة السعيدة معها في هدوء الريف .

ووصلت في أبريل ، فقبض عليها قورا ، ولم تعذب ولكنها امتحنت امتحانا صارما ، فانهارت ، واعترفت بأن الكسيس اغتبط لنا بحركات التمرد على أبيه ، وأنه أعرب عن نيته حين يعتلى العرش في هجران سانت بطرسبورج والبحرية ، وخفض عدد الجيش الى ضرورات الدفاع . ولم يكن هذا سرا مما كان بطرس يعلمه من قبل ، فترك الكسيس طليقا شهرين آخرين . ثم أثارته مفاجآت جديدة لا علم لنا بها ، فأعلن أنه سحب عفوَه عن الكسيس ، لأن هذا العفو افترض اعترافه الكامل ، وقد توافر لديه الدليل الآن على أن الاعتراف كان غير مخلص وغير كامل . وفي ١٤ يونيو قبض على الكسيس وسجن في قلعة القديسين بطرس وبولس .

وفي ١٩ يونيو ١٧١٨ ، وبعد أن فحصته محكمة القضاء العليا ، عذب لأول مرة ، فجلد خمسا وعشرين جلدة . واعترف بأنه تمنى موت أبيه ، وبأن كاهنه قال له « اننا جميعا نتمنى موته » . ثم ووجهه بأفروسينيا ، التي أعادت ما قالته للقيصر من قبل ، ومع ذلك أقسم أنه سيحبها حتى الموت . وقال معترفا « شيئا فشيئا أصبح أبى ذاته ، لا كل شيء عنه فحسب ، بغیضا في عيني » واعترف بأنه لو اقتضاه الامر لاستعان بالامبراطور « في قهر التاج بالقوة (٣٦) » . وفي ٢٤ يونيو عذب مرة أخرى بجلده خمس عشرة جلدة لم تنتزع منه مزيدا من

الاعترافات . وقضت المحكمة العليا بأنه مذنب بالخيانة وحكمت عليه بالاعدام . والتمس الكسيس السماح له بمعانقة خليلته قبل اعدامه ، ولا علم لنا هل أجيب الى طلبه . ولم يوقع بطرس على الحكم . ثم أعيد استجواب الكسيس مرتين (٢٥ و ٢٦ يونيو) وهو يعذب ، وفى المرة الثانية بحضور القيصر والحاشية ، وقال ليفور فيما بعد « أكدوا لى أن أباه جلده الجلادات الأولى بنفسه ، وان كنت غير واثق من صدق هذا القول (٣٧) » . فى ذلك المساء مات الكسيس فى سجنه ، والظاهر أن موته كان من آثار تعذيبه . وزعمت رواية أن كاترين أمرت الأطباء بأن يقطعوا أوردهته ، ولا نستطيع الحكم على هذا العمل ، أهو من أعمال الرأفة به أم الطمع فى سبيل مصلحة ولدها . أما أفروسينيا فنالت نصيبا من ثروة الكسيس ، وتزوجت ضابطا فى الحرس ، وعاشت حياة مريحة ثلاثين سنة أخرى فى سانت بطرسبورج .

وكان بطرس يأمل أن يربى ابنه من كاترين ليخلفه ، ولكن الصبى مات فى ١٧١٩ . وأنجبت كاترين ولدين آخرين ، بطرس وبولس ، ولكنهما ماتا قبل القيصر . وعزى نفسه بالألقاب الفخمة التى خلعت عليه بعد صلحه مع السويد . وفى ذلك العام ، (١٧٢١) ، خلع مجلس الشيوخ والمجمع المقدس لقب الامبراطورة على كاترين . وبعد أن أمهل بطرس روسيا سنة سلامها الوحيدة منذ بداية حكمه النشط ، وجه قواته شطر فارس . وكان يرجو أن يستخلص طريق قوافل الى وسط آسيا ، وأخيرا الى الهند ، وسيطر عليه ، وأخبره مبلغوه أن فى الامكان العثور على الذهب فى الطريق ، وكان سباقا الى توقع الامكانيات الصناعية لزيت القوقاز والشرق الأوسط (٣٨) . وفى ١٧٢٢ جرد أسطولا على قزوين لمهاجمة فارس ، فاستولى على باكو وبعض سواحل قزوين الفارسية ، غير أن العواصف دمرت معظم سفنه ، وأتى المرض على جزء من جيشه ، وعاد بطرس من حملة ١٧٢٤ مرهقا ، متشائما ، مشرفا على الموت .

ذلك أنه كان يشكو مرض الزهري سنوات طويلة (٣٩) ، ويعانى من العقاقير التى تعاطاها للعلاج منه . وزاد ادمانه السكر الطين بله ، واجتمعت عليه انفعالات الحرب ، والثورة ، وحركات التمرد ، وعنق

٥ - قصة الحضارة

الأرهاب ، لتنهك جسمه العملاق فى النهاية . وفى نوفمبر ١٧٢٤ قفز الى النيفا المتجمد ليساعد على انقاذ ملاحين على سفينة جانحة . وظل يعمل طوال الليل فى مياه غمرته حتى خصره . وفى الغد أصيب بحمى ، ولكنه شفى منها ، واستأنف برنامجا حافلا بألوان النشاط . وفى ٢٥ يناير لزم فراشه اثر التهاب مؤلم فى المثانة . وأبى أن يسلم بأن منيته دنت حتى ٢ فبراير ، فاعترف ببعض ذنوبه ، وتناول الأسرار المقدسة . وفى السادس من الشهر وقع اعلانا بتحرير جميع السجناء فيما خلا المحكوم عليهم لجرائم القتل أو لجرائم ضد الدولة . وقصد روع أتباعه بصرخات الألم . وطلب لوحا يكتب عليه وصيته ، ولكن ما ان كتب هاتين الكلمتين « أعطوا جميع » حتى وقع القلم من يده . وسرعان ما انتابته غيبوبة دامت ستا وثلاثين ساعة ، ولم يفق منها قط . وأذيع نبأ موته فى ٨ فبراير ١٧٢٥ ، وكان يومها فى الثانية والخمسين .

وتنفست روسيا الصعداء كأن كابوسا طويلا رهيبا قد انجاب عن صدرها آخر الأمر . وابتهج ملكا السويد وبولنده ، وتوقعا أن تتردى روسيا فى مهاوى الفوضى ، وتكف عن أن تكون خطرا يهدد الغرب . ورفعت روسيا القديمة ، روسيا العصور الوسطى ، عقيرتها وطلبت عودة الى الماضي . لقد دفعت الامة دفعا مفرطا فى العنف ، وأوذيت فى روحها وكبرياتها بهذا التقليد الاعمى للغرب . وانتشرت الرجعية انتشارا واسعا وانتصرت ، وترك الكثير من الاصلاحات ليموت من افتقاره الى التأييد . واختزلت البيروقراطية الادارية ، ولكن اطارها احتفظ بحياته حتى ١٩١٧ ، واستعاد النبلاء الكثير من سلطانهم القديم ، واستردوا حقوقهم فيما تحويه أراضيهم من أخشاب ومعادن . أما الطبقة الصناعية والتجارية التى طفر بها بطرس فقد عادت الى خضوعها الماضي . وانهار الكثير من الصناعات الجديدة بسبب النقص فى الآلات ، أو العجز فى العمال أو الادارة . واضمحلت الرأسمالية الوليدة ، وظلت روسيا الاقتصادية مائتة عام أخرى كما كانت أساسا قبل الثورة البطرسية . أما الاصلاحات التجارية فكانت أوفر حظا ، فاستمرت التجارة مع الغرب فى ازدياد مطرد ، وأثمرت الاتصالات بأوروبا شيئا من التهذيب فى السلوك ، ولكن الأزياء الوطنية القديمة

عادت فى عهد كاترين الثانية (١٧٦٢ - ٩٦) ، وعاد الناس يطلقون
لحاهم فى عهد الاسكندر الثانى (١٨٥٥ - ٨١) . واستمر الفساد ، ولم
يبدا على الاخلاق أنها جنت شيئا من وراء العهد ، ولعل ما ضربه بطرس
لشعبه من مثال فى السكر ، والأباحية ، والتوحش ، خلف الشعب أسوأ
خلقا من ذى قبل . ولم يبق من التغييرات الا ما ضرب جذوره فى
الزمن .

لقد كان بطرس أحد شخصيات التاريخ الحديث الأقل ظفرا بحب
الناس ، ومع ذلك كان انجازه هائلا . وإخفاقاته تنهض شاهدا على
قيود العبقرية وحدودها عاملا من العوامل المؤثرة فى التاريخ ، ولكن
فى البصمة التى تركها على روسيا ما يشيد بقوة الشخصية . فلقد أعطى
روسيا جيشا وبحرية ، وفتح الثغور التى أتاحت لها الاتجار مع الغرب
فى السلع والأفكار ، وأرسي صناعة التعدين وتشغيل المعادن ، وأنشأ
للمدارس وأسس أكاديمية . وبجذبة وحشية واحدة انتزع روسيا من
برائن آسيا وأدخلها أوربا ، وجعلها عاملا مؤثرا فى الشؤون الأوربية .
فمنذ الآن ستضطر أوربا لأن تحسب حسابا أكثر فأكثر لقلب القارة
الشاسع ذاك ، ولتلك الجماهير الصلبة ، الصابرة ، المتجلدة ،
ومصيرها المحتوم .